

الرجوم

رواية

فاهان كيراكوسيان

على مشارف البيوت السكنية. يقتلون كل مَنْ و ما يتحرّك في مرمى نيرانهم. كان الصراخ والعيويل يختلطُ بِ دويّ الانفجارات وأزيز الرصاص، وراح القتلى يتساقطون في الشوارع، و دماءهم تجذبُ الكلاب و الحشرات و القطط الجائعة. كان الأطفال يصرخون من الهلع، و يبكون بحرقّة على مقتل أمهاتهم وآبائهم، وكان المصابون منهم يتشبّثون بِ جثث أوليائهم. تَوَعَّل المقاتلون في أحياء المدينة. كان الدمار كبيرا، والحرائق ما تزال مشتعلة في البيوت و البساتين. راحوا يجمعون الغنائم من المنازل والمحال التجارية المدمّرة. صَعَدَ أحد المقاتلين إلى مئذنة مسجد المدينة رَفَعَ عَلمَ الأردن فوقها. إلا أَنَّهُ اضطرَّ إلى إنزاله بَعْدَ أَنْ صَرَخَ قائد السرية قائلا: أَنْزِلِ العَلمَ المحلي، و ارفعِ العلم الجامع، عَلمَ الأُمّة! كانت الأوامر الصادرة من القيادة، تقضي بِ أخذِ الجنود استراحة المقاتل لِ أربع و عشرين ساعة. يتفَقّدون خلالها جهوزية أسلحتهم و أغراضهم الشخصية في أكياسهم الميدانية. يرتّبون مقتنياتهم و أسهمهم من الغنائم. كانت الخطة، بعد الاستراحة، هي الهجوم على بيت لحم و حبرون و القدس.

في الجبهة الجنوبية الغربية، كان مغاوير السيناى يقطعون رؤس الأفاعي بِ اسنانهم، و يأكلونها طازجة بِ دماها. كانت زمجرتهم تصلُ إلى مسامع جنود الجيش الأوّل في شمال إسرائيل. حتّى أنّ الفدائيين الفلسطينيين أكّدوا ذلك، و قالوا بِ أَنهم سمعوا صدى التكبير الآتي من الجنوب. خاض جنود الجيش السابع صراعا مريرا وشرسا ضدّ قوى الصحراء الغاشمة. عانوا كثيرا من قيظ الصحراء، و حرارة الرمال غير المحتملة. كان الهواء الساخن يلفح وجوههم، و العجاج يدفع بالرمال الناعمة إلى عيونهم والأجزاء الحساسة من أسلحتهم، ممّا أدّت إلى تَعَطُّل الكثير منها. كان تَقَدّمهم بطيئا، و خاصة الأليات الثقيلة و الدبابات و مدفعية الميدان. أمّا جنود المشاة، فَ قد تعرّض ربيعهم إلى صدمات التجفاف وضيّق في التنفّس. و قسم منهم فَقدَ بصره جزئيا أو كليا بِ سبب الوهج المنعكس من لهيب

الرمال و السديم الملتهب. كانت هناك معضلة في إمداد أفراد الجيش ب التموين، و المياه، و خاصة مياه الشرب. شَعَرَ القادة ب تملل الجنود من هذه الظروف الصعبة، و النقص في احتياجاتهم الأساسية ك مقاتلين يخوضون حرباً مقدّسة. على بُعْدِ خمسة و ثلاثين ميلاً من الحدود مع العدو، أمرَ قائد الجيش السابع ب التخييم و الاستراحة إلى غروب الشمس. في الأثناء كانت القيادة العليا قد استدركت العثرات التي اعترضت المقاتلين في جبهة السينا. هذا أعطى زخماً ل موجّهي الحرب النفسية، بحيث قاموا ب إلقاء حُطْبٍ و خطابات سياسية و وطنية تُعزِّز وترفع من معنويات المقاتلين. كما أنّ الدعاة والشيوخ والأئمة المرافقين لهم استغلوا الظرف، و راحوا يلقون حُطْبَ دينية، ك التي يلقونها في المساجد أيام الجمعة، مستفزة للعقيدة ومحرّضة على الدفاع عنها حتّى الاستشهاد. كان هدفهم الأساس من حُطْبِهِم، هو أنّ يُحوّلوا هذه الحرب إلى حرب دينية بين الإسلام و المسلمين من جهة، و بين الكفار و أبناء القردة من ناحية أخرى.

بدأ الهجوم العنيف مع بدء آذان الفجر. تمّ القصف ب مختلف صنوف الأسلحة على المدينة. كانت عرّة هي المدينة المستهدفة. لم يكن فيها جيش إسرائيلي، و لا حتى على حدودها. اشتعلت النيران فيها. دُمّرت المباني و البيوت و الساحات والأسواق، وكان زلزالاً ب ثماني درجات ريختر قد صرّبها. صعق الأهالي من هؤل الانفجارات والنيران التي اندلعت فيهم. أسرع الناجون من القتل إلى الشوارع هرباً من الأتون المشتعل. لم يتسنّ لهم تفقّد أفراد أسرهم، و لم يحظوا ب أدنى فرصة ل البحث تحت ركام المباني و البيوت، ل معرفة مصير فلذات أكبادهم و أحبّابهم. لجأ الأهالي إلى الجوامع للاحتماء بقببها وأعمدتها الرخامية. ازدحمت المساجد و الجوامع ب الهاربين من نيران الجحيم التي أشعلها المؤمنون المجاهدون. كانوا يختبؤون خلف الأعمدة، و يتكؤمون في زوايا قاعة الصلاة. كانوا يتراصون بعضهم فوق بعضهم الآخر. يحملون الصغار على أكتافهم، ويتدافعون لا إرادياً و

يتلامسون ويلتصقون ببعضهم. الرجال والنساء، الشباب والشابات، الصغار والكبار. كان أغلبهم بثياب النوم، وكانت أعضاؤهم الحساسة المغرية مكشوفة. في غمرة هذا الوضع المأساوي، كان البعض (من الرجال و الشباب) يستغل حالة الازدحام و التدافع، و يدعكُ حوضه ب مؤخرة الإناث ل الحصول على اللذة الجنسية. كانت النساء و الفتيات يغلثن ما يفعله هؤلاء الأوغاد. لكن لم يكن لديهن الوقت و الرغبة في الصراخ و البصاق في وجوههم، و ربما كنَّ على يقينٍ من أنَّهنَّ سَ يتحوَّلنَّ إلى سبايا بعد حين من الزمن. رَحَفَ المجاهدون، فرسانا و مشاةً، إلى داخل المدينة المشتعلة. سيوفهم و رماحهم تلمع أنصالها حين تنعكس السنة النيران عليها. زئيرهم يخترق قَبَب و جدران المساجد. يقطعون رؤس الذين يصادفونهم مع التكبيرات المدوية. نهبوا البيوت من حيِّ ل حيِّ. ساقوا السبايا و الولدان. اقتحموا الجوامع الواقعة على طريق غَزَوَتِهِم. قتلوا الرجال، سَبَوِا النساء. انتشرت رائحة الدماء والبراز و الأبوال و مني المجاهدين في الأرجاء. كان صراخ الأطفال و العذرى، و أنين المذبوحين يُقَطِّع نياط القلب.

ازدحمت الشوارع و الساحات ب الدواجن الهاربة من أفتانها المحترقة. العجول، الخراف، الأرانب و الخنازير التي داهمتها النيران في حظائرها المدمَّرة، ملأت الشوارع بحثًا عن ملاجئ آمنة. كانت تقفز فوق الجثث، تنطح العوائق التي تعترضها، و ترفس القلط و الجرادين. تهرب من هجمات الطيور الجارحة التي جَدَّبَتِها روائح الدماء إلى شوارع المدينة. اقتحمت، تلك القطعان، المساجد هربا من الموت المُحَقَّق. تبتعتها الصقور و النسور و البواشق إلى ساحات المساجد، و عدد منها راحت تُمزِّقُ الجثث داخل قاعات الصلاة، ولم يفلت الرضع من وحشية مخالبيها و مناقيرها الحادة، كما الخناجر القاطعة.

راح المجاهدون يقتلون الخنازير والأرانب، ويرمون جثثها في أفتية المياه العذبة. قَتَلَ عدد من المقاتلين ب سببِ نطحات العجول و طعنات أنياب الخنازير. تَعَرَّضَ

الجيش إلى صدمة. سيطر عليهم هياج و حالة عصبية مما أدّى إلى تخلخل في الصفوف، وغياب الانضباط العسكري الصارم. في الأثناء صعد أحد المقاتلين إلى منبذة الجامع، و بدأ ب التكبير و الدعوة إلى صلاة التعلُّل. لكن محاولته باءت ب الفشل. ف لون الدّم و رائحته الزنخة، كانا يثيران الغريزة العدوانية و الرغبة في القتل، بل الحاجة إلى القتل. لم يتم السيطرة على الوضع إلّا ب الدعوة إلى اجتماع عاجل ل القيادة. بحث قادة الجيش السابع، المهاجم من السيناء، الذي تعرّض إلى هذه الحالة الخطيرة من الفوضى و الهيجان و الرغبة في المزيد من القتل. بحث هؤلاء الوضع العسكري والنفسي لإلجيش. وقرروا منح الجنود استراحة ل مدة ثلاثة أيام، يقومون ب ترتيب أمورهم المادية و الجسدية و الغريزية. في الأثناء، سُمع دوي انفجارات من أرجاء مختلفة. ارتجت السماء وأزعدت، و راحت أصوات الانفجارات تخترق طبقات الهواء و ك أنّها صادرة من تصادم الصخور ب بعضها، أو جّراء سقوطها من قمم جبال شاهقة و تدرجها في الاتجاهات كلّها. عقت القيادة العليا اجتماعا خاطفا. البند الوحيد على جدول الاجتماع، كان، هذا القصف المدوي من أماكن مجهولة في السماوات. لم يعرفوا من أيّ سماء هو هذا الهجوم المرعب. هل هو من السماء الأولى أو الثانية أو الخامسة، و ربّما يكون من السماء السابعة. قرّر المجتمعون فرّض حالة التأهب القصوى، و بقاء الجنود ب لباس الميدان الكامل مع أسلحتهم و ذخائرهم، و توجيه الصواريخ و المدافع المضادة للطيران نحو السماء. وتركيز الرادارات و الهوائيات ل استكشاف الأجسام الطائرة في المجال الجوي للمعسكرات كلّها. تمّ تفعيل الخط الساخن بين القيادة العليا و الكعبة المشرفة. التوجيه الأول الذي صدر من مكة إلى القيادة العليا، كان فحواه، أن ننتظر صدى سهيل الأحصنة المرابطة شمال البحر المتوسط، في بلاد الفرنجة الكفار، و أيضا الشعاع الواصل من عيون أبي الهول إلى رداء الحجر الأسود المقدّس في مكة المكرمة. عند ظهور هذه الإشارات مع

صَفِيرِ ملائكة الرحمن، سَ يَتَقَرَّرُ ساعة الصفر لِي الفتح الأعظم في تاريخ الأمة. كُنْتُ على هضبة الجولان قُرْبَ سارية العلم، يقول سارو، حين أُرْعِدَتِ السماء. كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى الفضاء محاولاً تحديد الجهة التي تَضَجُّ بِِ الانفجارات و الرعود، و في الأثناء، صَرَبَ شعاع البرق قمة الهضبة حيث كُنْتُ أَقْفُ و أستمع إلى صدى الانفجارات. أَدَخْتُ الشعاع دائرة ضوء من حولي، بِِ قَطْرٍ ثلاثة أمتار و بِِ ارتفاع موصول بِِ السماء. وجدثني داخل اسطوانة ضوئية مُفْرَغَةً، من الهواء. أرتفع، في هذا الخلاء، نحو الأعلى، أَصْبَحْتُ في السماء الثالثة. مِنْ هُنَا بَدَأَ أرى الكوكب الأزرق الموشاة بِِ خطوط بيضاء و بُقَع خضراء. أرى ساحة المعركة بِِ صورة بانورامية، أرى الدول الأربع المحيطة بِِ إسرائيل، وأرى الجيوش المهاجمة و رياتها الخفاقة بألوانها الخضراء والسوداء، وأكاد أسمع هدير الهيعات و التكتيريات الصادرة من حناجر الجنود. لم يكن هناك أَيُّ أثرٍ لِ الجيش الإسرائيلي في المدن التي اقتحمها المجاهدون، و لا حتَّى لِ المواطنين اليهود المدنيين. فَ جيوش المؤمنين قتلوا وذبحوا المسلمين وأشباح اليهود والنصارى. إنهم سبوا ونكحوا نساء و عذارى المسلمين. كانوا يطاردون القنافذ والصراصير والخنازير، وكانوا يرمون نبال أقواسهم على الخفافيش.

كان اليهود يخطِّطون لِ المواجهة الكبرى مِنْ مقرات القيادة التي أنشؤها تحت الأرض. كانوا على عِلْمٍ بِالهجوم الكاسح لِاستعادة القدس إلى الوَقْفِ الإسلامي. لذلك تَجَنَّبُوا المذابح على يد المجاهدين، فَ هم يعيشون تحت الأرض في مدنٍ تشبه تلك التي على السطح. إنَّهم يتواصلون مع جواسيسهم الفضائيين. هؤلاء يتجسسون على الخطط التي يضعها إله المجاهدين و معاونيه. يرسلون المعلومات التي يحصلون عليها إلى القيادة المجتمعة تحت الأرض، و ما تلك الانفجارات و الرعود سوى رجوم يقذفها إله الحرب على هؤلاء الجواسيس. رأيتُ صواريخ هائلة تنطلق من أعماق البحر بِِ اتجاه معسكراتنا. حُجِبَتِ السماء بِِ

الصواريخ، و راحت تدكُ مواقعنا و تدمِرُ جيوشنا. خَرَجَ الجيش و الشعب من تحت الأرض إلى فوقها، و راحوا يزحفون على جنودنا. في الأثناء لجأ الشيوخ و أرباب الشعائر الدينية إلى المساجد. فعلوا كما فعل بلال الحبشي من قبلهم، و صعدَ صوت التكبيرات والهيئات إلى مسامع الله في عرشه. أدركَ بَ أَنَّ المجاهدين في ضيق و كرب شديدين، و في الحال، أرسل فيالق الأباييل. فيلق القدس و فيلق الأقصى و فيلق ثالث الحرمين. راحت طيور الأباييل تقصف جنود العدو بَ حجارة من سجيل. تُدمِرُ الحصون و تحرق الأخضر واليابس، و تفجِرُ الصواريخ المنطلقة من البحر في الجوّ قبل سقوطها على المجاهدين. لم تؤثّر صنوف الأسلحة جميعها في الفيالق المغيرة، ولم يسقط منها أيّ طائر. استمرّ القصف بَ صواريخ السجيل إلى أنْ تَمَّ إسكات مصادر نيران العدو كلها، و تبِعَ ذلك هجوم شامل على كافة الجبهات. رأيتُ أشلاء الأعداء، من جيش و شعب، تملأ الشوارع و الأزقة و الساحات. اقتحم المجاهدون كلَّ المدن، وفتحوا القدس. هرب جيش العدو باتجاه البحر، و زحف اليهود من وراء جيشه الرعديد باتجاه البحر. ركبَ مَنْ حالفه الحظُّ في البواخر والبوارج الحربية هرباً، ورمى بَ نفسه في البحر، مَنْ لم يجد ل نفسه فرصة و مكاناً في المراكب. و هكذا تَمَّ تطهير الأرض المقدّسة من رجس اليهود، و تَمَّ رميهم في البحر.

تَنبَّه سارو إلى المكان، حين أطلَقَت سيارة أجرة زَمورها القوي في وجه دراجة هوائية، حاولَ ركبها قَطَعَ الطريق على السيارة مِنْ أمامها. أخرجَ سائق التوكسي رأسه مِنْ نافذته شامتا إياه بَ مَسَبَات فاحشة. أما سائق الدراجة رَدَّ عليه بَ مَسَبَة مِنْ عيار ثقيل مع حركة مِنْ أصبعه الوسطى.

كانت السماء قد انكشفت، و أضاءت شوارع المدينة بَ أولى إشعاعات الشمس الصاعد نحو الفجر، و الزبائن كانوا قد تَجَمَّعوا حول بائع الفول. كان نشيطاً، و كان يُرَجِّبُ بَ الزبائن بَ أحلى الكلام و أجمل العبارات التي حفظها لزوم المهنة.

رَحَبَ بِ سَارُو، وَلَبَّى طَلْبَهُ بِسُرُورٍ. رَاحَ سَارُو يَتَنَاوَلُ الْفُولَ الْمَدْمَسَ وَ هُوَ يُرَدِّدُ،  
أَتْنَاءَ الْأَكْلِ، لَقَدْ رَمَيْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ. نَعَمْ.. لَقَدْ رَمَيْنَاهُمْ فِي الْبَحْرِ.  
كَانَ يُرَدِّدُهَا مَعَ ابْتِسَامَةٍ سَحْرِيَّةٍ غَامِضَةٍ الدَّلَالَاتِ.